الباب الثالث
النبــوات

الفصل الأول
حقيقة النبوة والرسالة

- ضرورة النبوة والرسالة .
- الفرق بين النبي والرسول .
- الوحي الإلهي .
- حكمة إرسال الرسل .
- نبوة محمد - صلى الله عليه وسلم - .
- نتائج الفصل .

أولاً: ضرورة النبوة والرسالة:

اتفق علماء الأديان على أن الإيمان بالله ـ تعالى ـ فطرة في النفس الإنسانية، فشعور الإنسان بوجود قوة فوق قوته هو من الأمور التي لا يكاد يخلو منها إنسان على وجه البسيطة، خاصة في أوقات الشدة والأزمات. ولكن الناس اختلفوا في تحديد تلك القوة: فمنهم من فسرها تفسيراً مادياً محسوساً ومنهم من أرجعها إلى أمر غيبي، كما اختلفوا في تحديد مفهومها وصفاتها. وهذا الاختلاف راجع إلى قصور العقل البشري، وعدم قدرته على الوصول إلى أحكام يقينية حول كثير من الأشياء المحيطة به، فضلاً عن الأمور الغيبية. لذلك كانت الحاجة إلى الوحي الإلهي لا غنى للبشرية عنها في تصحيح العقيدة في الله وفي بيان صفاته وكمالاته، وتنزيهه عن النقائص، ومشابهته للمخلوقات. وكذلك في معرفة الدين الذي ارتضاه لعباده، ليكون لهم نوراً يهتدون به في ربط علاقتهم بربهم وعبادتهم له، وقانوناً ينظم علاقاتهم مع بعضهم بعضاً، ليسعدوا في الدارين.

يقول الإمام «محمد عبده»: وليست عقول الناس سواء، وإن اتفقوا في الخضوع لقوة أسمى من قواهم، وشعر معظمهم بيوم بعد هذا اليوم، ولكن الوثنية أفسدت عقولهم، وانحرفت بها عن مسلك السعادة، فليس في سعة العقل الإنساني في الأفراد كافة أن يعرف عن الله ما يجب أن يعرف[1].

فمدار العقل محدود كما يقول «ابن خلدون»: العقل ميزان صحيح، فأحكامه يقينية لا كذب فيها، غير أنك لا تطمع أن تزن به أمور التوحيد، والآخرة،

---

(1) رسالة التوحيد. محمد عبده ص 82. تحقيق: محمود أبو رية. الطبعة الثالثة. دار المعارف بمصر.

وحقيقة النبوة، وحقائق الصفات الإلهية وكل ما وراء طوره، فإن ذلك طمع في محال[1].

ومن ثم فلا سبيل إلى معرفة ذلك معرفة صحيحة إلا على أيدي الأنبياء المعصومين. فهم الوسيلة الوحيدة لإدراك حقائق الأشياء، تلك المعرفة التي لا يشوبها جهل ولا يتطرق إليها الضلال، وسوء الفهم.

وقد أثبت التاريخ فشل كثير من المحاولات التي اعتمد أصحابها على العقل والذكاء الفطري - في الوصول إلى الهداية الكاملة في الغيبيات، وأمور المعاملات... فالوحي الإلهي هو الوسيلة المأمونة لكمال الإنسانية، وحفظ النظام، وضبط سلوك الفرد والجماعة، لأن العقول مهما بلغت من الذكاء والتجرد من العواطف والمؤثرات فإنها لا تحيط بأحوال العباد، فلو وكلوا إلى عقولهم لأدى ذلك إلى الاختلاف والتنازع وعدم الاستقرار.

فالعقل منحة الله سبحانه للإنسان كي يميز به النافع من الضار، ويستخدمه في إصلاح شأنه وترقية ذاته. ولكن هل تكفي هذه الهبة في معرفة السعادة الدنيوية والأخروية. بهذا قالت «البراهمة» من الهنود، وتأثر بها بعض المنحرفين من قدماء المفكرين المسلمين. وزعمت أن في عقل الإنسان غُنْيَةً عن أي شيء سواه وبهذا أنكرت النبوة طريقاً للعلم[2].

ولم تكن البراهمة وحدها هي التي تنكر النبوة. بل كان لهذا الإنكار أشياع عاصروا كل نبي ووجدوا في كل وقت، إلا أن «البراهمة» هي التي اشتهرت به لدى قدماء العلماء من المسلمين، لأنها هي الطائفة التي كان لها نشاط في بث الدعوة فيما بين المسلمين إبان امتزاج الشعوب الإسلامية في أعقاب الفتح الإسلامي، واتساع رقعة الدولة[3].

---

(1) مقدمة ابن خلدون ص 460. المكتبة التجارية الكبرى. القاهرة.

(2) في الفلسفة الإسلامية منهج وتطبيق، الدكتور إبراهيم مدكور 1/ 79. الطبعة الثانية. دار المعارف بمصر.

(3) فخر الدين الرازي وآراؤه الكلامية والفلسفية. محمد صالح الزركان ص 547. مرجع سابق.

وتقوم فكرة «البراهمة» في مجملها على تقديس العقل البشري بحسبانه كافياً لإسعادهم في الحياتين الأولى والثانية.

إن ما يأتي به الرسول لم يخل من أحد أمرين: إما أن يكون معقولاً، وإما أن يكون غير معقول. فإن كان معقولاً، فقد كفانا العقل التام بإدراكه، والوصول إليه، فأي حاجة لنا إلى الرسول؟!

وإن لم يكن معقولاً، فلا يكون مقبولاً، إذ قبول ما ليس بمعقول خروج عن حد الإنسانية ودخول في حريم البهيمية[1].

وهذه الفكرة المنبعثة من «البراهمة» وغيرهم من القدماء هي التي تبناها «ابن الراوندي»[2] الذي أنكر النبوات عامة بما في ذلك نبوة «محمد» ـ صلى الله عليه وسلم ـ، ونقد بعض تعاليم الإسلام وعباداته، ثم رفض في شيء من التهكم المعجزات في جملتها: «فأما الرسل فلا حاجة إليهم، لأن الله قد منح خلقه عقولاً يميزون بها الخير من الشر، ويفصلون الحق عن الباطل، وفي هدي العقل ما يغني عن كل رسالة»[3].

---

(1) انظر: الملل والنحل، للشهرستاني 2/ 96. مرجع سابق.

(2) شخصية غريبة للغاية، ولا يعرف بالدقة تاريخ مولده ولا وفاته، ويغلب الظن أنه مات في أخريات القرن الثالث الهجري، وهو من أصل يهودي. نشأ في «راوند» قرب «أصبهان» ثم سكن «بغداد» واتصل بالمعتزلة، وأصبح من حذاقهم، وعده «المرتضى» صاحب «المنية والأمل» بين طبقتهم الثامنة.
إلا أنه لم يلبث أن خرج عليهم لأسباب لم يجلها التاريخ بعد، وحمل عليهم، بل على الإسلام وتعاليمه المختلفة حملة عنيفة، ولازم الملحدين، واتصل بهم اتصالاً وثيقاً، ويظهر أنه أضحى دسيسة ضد المسلمين يدبر لهم المكائد، ويستأجر للطعن عليهم، وينشر فيهم عناصر الزيغ والإلحاد.. انظر: في الفلسفة الإسلامية منهج وتطبيق. 1/ 80. وجاء في الهامش من كتاب الأنساب 3/ 32: في معجم البلدان، وينسب إلى «راوند»... وأبو الحسين أحمد بن يحيى بن إسحاق المشهور بابن الراوندي الزنديق هلك سنة 298هـ.

(3) في الفلسفة الإسلامية منهج وتطبيق 1/ 82.

وهذه الفكرة نفسها رددها «أبو بكر محمد بن زكريا الرازي»[1] الطبيب. فهو يؤكد فكرة الاعتماد على العقل دون الدين، حيث يرى أن الفلسفة هي السبيل الوحيد لإصلاح الفرد والمجتمع، وأن الأديان مدعاة التنافس والتطاحن والحروب المتتالية[2].

أما في العصر الحديث فإن بعض المغرورين[3] يزعمون أن العقل الإنساني وما وصل إليه من تقدم علمي وتقني قادر على حفظ الحقوق، وصيانة الحياة من الانحراف والظلم البشري، فلم تبق هناك حاجة إلى التشريعات الإلهية، والهداية النبوية. ولا يخفى على أحد أن العقل الإنساني، والتقدم العلمي مهما بلغا من الرقي والتقدم لا يمكن لهما الوصول إلى الهداية الكاملة التي أقامت صرحها الأديان. وقد سجل التاريخ البشري تلك المحاولات التي قام بها عباقرة علماء القانون، وعلماء النفس لوضع قوانين تهدي الناس إلى الأمن والسعادة، وتضمن حقوق الأفراد والمجتمع، ولكنها وصلت في النهاية إلى طريق مسدود، ولست في حاجة إلى ذكر ما يعانيه الإنسان ـ اليوم ـ من ضياع على الرغم مما وصل إليه من رقي وتقدم في الجانب المادي. وإذا كانت الشيوعية قد سقطت، وأصبحت في سلة مهملات التاريخ، فإن

---

(1) ولد سنة 250هـ «بالري» حيث تعلم الرياضيات، والفلك، والأدب، والكيمياء، ويظهر أنه لم يتقدم للدراسات الطبية إلا بعد أن بلغ سناً خاصة ولكنه لم يلبث أن برز فيها على جميع معاصريه... وصار أكبر طبيب في الإسلام، بل في القرون الوسطى على الإطلاق... وإلى جانب دراسته للطب اشتغل بالفلسفة، ولكنه يختلف عن فلاسفة الإسلام المعروفين، من حيث إنه يهاجم أولاً أستاذهم وزعيمهم «أرسطو» ويخرج على كثير من نظرياته الطبيعية، والميتافيزيقية، ويبالغ ثانياً ـ على العكس منهم ـ في التعلق بأهداب «المزدكية والمانوية» والمعتقدات الهندية، وينكر أخيراً كل الإنكار محاولاتهم التوفيق بين الفلسفة والدين. انظر: في الفلسفة الإسلامية منهج وتطبيق 1/ 84 ـ 85.

(2) المرجع السابق 1/ 85.

(3) أتباع «الوضعية المنطقية» ولم تعرف حركةً علميةً إلا في العقد الرابع من القرن العشرين، ولكنها فكرةً نشأتْ قبل ذلك بسنين طويلة على أيدي أمثال: هيوم، وميل، وبتراند رسل. انظر: الإسلام يتحدى، لوحيد الدين خان ص 33.

الأفكار المادية الأخرى سوف تلقى المصير نفسه ﴿ فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَآءً وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمْكُثُ فِى ٱلْأَرْضِ﴾[1]. وهذا ما يؤكد حاجة الإنسان، واضطراره إلى قانون سماوي منزه عن النقائص، والمساوئ، وهو ما أتى به الرسل جميعاً من لدن «آدم» إلى «محمد» عليهم الصلاة والسلام.

إن الخدمة الجليلة التي تؤديها الأديان للجماعة لا تقف عند حد تهذيب السلوك، وتصحيح المعاملة، وتطبيق قواعد العدل، ومقاومة الفوضى والفساد، بل إن لها وظيفة إيجابية أخرى أعمق أثراً في كيان الجماعة، ذلك أنها تربط بين قلوب معتنقيها برباط من المحبة والتراحم لا يعدلُه رباط آخر من جنسٍ، أو لغةٍ، أو جوارٍ، أو مصالحَ مشتركةَ[2].

---

(1) الآية 17 من سورة الرعد.

(2) الدين. الدكتور محمد عبدالله دراز ص 101. مرجع سابق.

ثانياً: الفرق بين النبي والرسول:

يحدد «الحليمي» مفهوم النبوة لغة فيقول: إن النبوة اسم مشتق من النبأ، وهو الخبر، إلا أن المراد به في هذا الموضع خبر خاص، وهو الذي يكرم الله ـ عز وجل ـ به أحداً من عباده، فيميزه عن غيره بإلقائه إليه، ويوقفه به على شريعته بما فيها من أمر ونهي، ووعظ وإرشاد، ووعد ووعيد، فتكون النبوة على هذا: الخبر والمعرفة بالمخبرات الموصوفة، والنبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ هو المخبر بها[1].

وقيل: النبي مشتق من النبوة، وهو الارتفاع. يقال: تنبأ فلان إذا ارتفع وعلا، والرسول عن الله موصوف بذلك لعلو شأنه، وسطوع برهانه. وقيل: من النبي وهو الطريق، لأنه وسيلة إلى الله تعالى[2].

ويفرق «الحليمي» بين مفهومي النبي والرسول في الاصطلاح، ويرى أن الذي يميز الرسول على النبي هو البلاغ. فيقول: فإذا انضاف إلى التوقيف أمر بتبليغه الناس، ودعائهم إليه كان نبياً ورسولاً.

وإن ألقى إليه ليعمل به في خاصته، ولم يؤمر بتبليغه والدعاء إليه، كان نبياً ولم يكن رسولاً، فكل رسول نبي، وليس كل نبي رسولاً[3].

وهذا الفرق هو الرأي المشهور الذي تبناه أكثر أهل الكلام: فالرسول من أوحي إليه بشرع وأمر بتبليغه. والنبي من أوحى الله إليه بشرع سواء أمر بالتبليغ أم لم يؤمر. فتكون النسبة بينهما العموم والخصوص المطلق، يجتمعان في الرسول وينفرد الأعم وهو النبي.

---

(1) المنهاج في شعب الإيمان 1/ 239.

(2) شرح المواقف للجرجاني 8/ 218. مرجع سابق.

(3) المنهاج في شعب الإيمان 1/ 239.

وقد ذكر بعض المتكلمين تعريفات أخرى للرسول والنبي، يمكن أن نوجزها فيما يلي:

1. اتحاد مفهوم الرسول والنبي:

ذهب جمهور المعتزلة إلى أنه لا فرق بين النبي والرسول في الاصطلاح، وإن كان هناك فرق بينهما في المفهوم اللغوي:

يقول القاضي «عبد الجبار»: إن الرسول من الألفاظ المتعدية، أي لابد أن يكون هناك مرسل ومرسل إليه، وإذا أطلق فلا ينصرف إلا إلى المبعوث من جهة الله ـ تعالى ـ دون غيره، حتى إذا أردت غير ذلك فلا بد أن يقيد.

وأما النبي فقد يكون مهموزاً ومشدداً، فإذا كان مهموزاً فهو من الإنباء، وهو الإخبار، وإذا وصف به الرسول، فالمراد به أنه المبعوث من جهة الله تعالى، وإذا كان مشدداً فإنه يكون من النباوة وهو الرفعة والجلالة. وإذا وصف به المبعوث، فالمراد أنه المعظم، الذي رفعه الله وعظمه.

وفي الخبر أن بعضهم قال للرسول ـ عليه السلام ـ: يا نبيءَ الله مهموزاً، فقال له الرسولُ: لست نبيء الله، وإنما أنا نبي الله.

وإذا قد عرفت ذلك فاعلم أنه لا فرق في الاصطلاح بين الرسول والنبي[1].

ولكن يؤخذ على هذا الرأي ـ إلى جانب مخالفته للرأي المشهور ـ أنه لا يتفق مع ظاهر الآية الكريمة: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٖ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ أَلۡقَى ٱلشَّيۡطَٰنُ فِيٓ أُمۡنِيَّتِهِۦ﴾[2]. حيث عطف النبي على الرسول مما يدل على أن بين اللفظين تغايراً وإلا لما جاز العطف. وقد اتفق المفسرون على ذلك كما صرح بذلك صاحب الكشاف[3].

---

(1) شرح الأصول الخمسة ص 567.

(2) الآية 52 من سورة الحج.

(3) الكشاف للزمخشري، 3/ 139. مطبعة الاستقامة بالقاهرة. الطبعة الثانية (1373هـ 1953م).

يضاف إلى ذلك أن الله قد وصف بعض الأنبياء بالوصفين معاً، كما في قوله تعالى: ﴿ وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَـٰبِ إِسْمَـٰعِيلَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ صَادِقَ ٱلْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولاً نَّبِيًّا ﴾[1]. فذكر الصفتين لموصوف واحد يقتضي تبايناً حتى يكون للتكرار فائدة.

2. الفرق بينهما بالشريعة المجددة، أو نسخ بعض أحكام الشريعة التي سبقته:

وهذا الرأي مال إليه «أبو منصور البغدادي» حيث يقول: إن النبي من آتاه الله الوحي، ونزل عليه الملك، أو بعثه لتقرير شريعة من قبله كأنبياء بني إسرائيل، الذين كانوا بين «موسى» و«عيسى» عليهما السلام. والرسول من يأتي بشرع على الابتداء، أو نسخ بعض أحكام شريعة التي قبله[2].

وهذا الرأي ـ أيضاً ـ مخالف لظواهر كثير من الآيات القرآنية التي وصف الله فيها أنبياءه بالرسالة، أمثال «إسماعيل» و«يوسف» و«يونس»... مع أنهم كانوا يدعون إلى شريعة من سبقهم. كما في قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ جَآءَكُمْ يُوسُفُ مِن قَبْلُ بِٱلْبَيِّنَـٰتِ فَمَا زِلْتُمْ فِى شَكٍّ مِّمَّا جَآءَكُم بِهِۦ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَن يَبْعَثَ ٱللَّهُ مِنۢ بَعْدِهِۦ رَسُولاً ﴾[3]. مع أن «يوسف» عليه السلام ـ لم يأت بشرع جديد. بل كان على ملة «إبراهيم» عليه السلام.

يقول «ابن تيمية»: وليس بشرط الرسول أن يأتي بشريعة جديدة، فإن «يوسف» كان رسولاً، وكان على ملة «إبراهيم»، و«داود» و«سليمان» كانا رسولين، وكانا على شريعة التوراة[4].

3. الفرق بينهما بنزول الكتاب:

وهذا الرأي قال به «التفتازاني» و«الدواني» فالرسول من بعثه الله إلى الخلق وأنزل عليه كتاباً كـ«إبراهيم» و«داود» و«موسى» و«عيسى» و«محمد» عليهم

---

(1) الآية 54 من سورة مريم.

(2) أصول الدين 154. مرجع سابق.

(3) الآية 34 من سورة غافر.

(4) كتاب النبوات، لابن تيمية ص 173. الطبعة الأولى 1346هـ. إدارة الطباعة المنيرية بمصر.

الصلاة والسلام[1]. لكن يرد على هذا القول، بأن عدد الكتب أقل بكثير من عدد الرسل كما جاء في الآثار الواردة في هذا الموضوع[2].

كما أنه يتعارض مع النصوص القرآنية التي وصفت بعض الأنبياء بأنهم رسل ولم تنزل عليهم كتب. كما تقدمت الإشارة إلى بعضهم.

4. الفرق بينهما من جهة المبعوثين إليهم:

وهذا الرأي ارتضاه «ابن تيمية» يقول: النبي هو الذي ينبئه الله، وهو ينبئ بما أنبأه الله به. فإن أرسل مع ذلك إلى من خالف أمر الله ليبلغه رسالة من الله إليه فهو رسول. وأما إذا كان إنما يعمل بالشريعة قبله، ولم يرسل إلى أحد يبلغه عن الله رسالة، فهو نبي وليس برسول. قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ﴾... فذكر إرسالاً يعم النوعين، وقد خص أحدهما بأنه رسول. فإن هذا هو الرسول المطلق الذي أمره بتبليغ رسالته إلى من خالف الله كـ«نوح»، وقد ثبت في الصحيح أنه أول رسول بعث به إلى أهل الأرض، وقد كان قبله أنبياء كـ«شيث» و«إدريس» وقبلهما «آدم» كان نبياً مكلماً. قال «ابن عباس»: كان بين «آدم» و«نوح» عشرة قرون كلهم على الإسلام. فأولئك الأنبياء يأتيهم وحي من الله بما يفعلونه، ويأمرون به المؤمنين الذي عندهم لكونهم مؤمنين بهم، كما يكون أهل الشريعة الواحدة يقبلون ما يبلغه العلماء عن الرسول[3].

وهذه التفرقة التي ذكرها «ابن تيمية» لا تتفق مع كثير من آيات القرآن التي تدل ظواهرها على أن من بين الأنبياء الذين كانوا قبل «نوح» من كلف بالرسالة، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحًا وَءَالَ إِبْرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمْرَٰنَ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾[4].

---

(1) شرح المقاصد 2/ 128. مرجع سابق.

(2) انظر مثلاً: حلية الأولياء وطبقات الأصفياء. للحافظ أبي نعيم أحمد بن عبدالله الأصبهاني. مطبعة السعادة بمصر. 1/ 167. (1391هـ 1971م).

(3) انظر: كتاب النبوات ص 172 ـ 173. أبو العباس أحمد بن تيمية.

(4) الآية 33 من سورة آل عمران.

فهذه الآية تدل على اصطفاء «آدم» وتكريمه بالنبوة والرسالة شأنه شأن «نوح» عليه السلام. وأيضاً معارض بما فهمه علماء التفسير من قوله تعالى: ﴿ تِلْكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ﴾[1]. فالإشارة تعود إلى جميع الرسل الذين ذكروا في هذه السورة من «آدم» إلى «داود» عليهم السلام، أو جميع المرسلين ويدخل فيه المذكورون دخولاً أولياً.

يقول «أبو حيان»: قيل الإشارة إلى الرسل الذين ذكروا في هذه السورة. أو للرسل الذين ثبت علمهم عند رسول ا لله ـ صلى الله عليه وسلم ـ والأولى أن تكون إشارة إلى المرسلين في قوله: ﴿ وَإِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴾[2]. ولا يلزم من ذلك علمه صلى الله عليه وسلم بأعيانهم بل أخبر أنه من جملة المرسلين[3].

ونخلص من كل ما تقدم إلى ترجيح الرأي الذي تبناه «الحليمي» وارتضاه جمهور العلماء: من أن الرسول هو الذي أوحى إليه بشرع وأمره بالتبليغ. والنبي من أوحي إليه بشرع سواء أمر بالتبليغ أم لم يؤمر. على اعتبار أنه جامع مانع.

---

(1) الآية 253 من سورة البقرة.

(2) الآية 252 من سورة البقرة.

(3) انظر: البحر المحيط في التفسير، لمحمد بن يوسف الشهير بأبي حيان الأندلسي الغرناطي 2/ 599. عني به الشيخ زهير جعيد. دار الفكر العربي للطباعة والنشر والتوزيع 1412هـ 1992م. بيروت. لبنان.

ثالثاً: الوحي الإلهي:

يرتبط الوحي ارتباطاً جوهرياً بحقيقة النبوة، على اعتبار أن الصلة بين الله ورسله لا تكون إلا عن طريق الوحي. والوحي لغة: إلقاء المعنى في النفس بخفاء وسرعة[1].

وفي الاصطلاح: أن يعلم الله ـ تعالى ـ من اصطفاه من عباده كل ما أراد إطلاعه عليه من ألوان الهداية والعلم، ولكن بطريقة سريعة خفية غير معتادة[2]. وقد حددت الآية الكريمة ـ في سورة الشورى ـ أنواع الوحي: ﴿ وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآيِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولاً فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِۦ مَا يَشَآءُ ۚ إِنَّهُۥ عَلِيٌّ حَكِيمٌ ﴾[3].

فهي لا تخرج على ثلاث صور:

أولاً: الكلام عن طريق الوحي والإلهام، والمراد بالوحي هنا: الإلهام، والقذف في القلب سواءً كان في اليقظة أم في النوم، لأن رؤيا الأنبياء وحي كما جاءت الأخبار بذلك، فقد روى «البخاري» بسنده عن «عائشة» أم المؤمنين ـ رضي الله عنها ـ أنها قالت: أول ما بدئ به رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ من الوحي الرؤيا الصالحة في النوم، فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح[4].

ثانياً: الكلام من وراء حجاب: وهو أن يخاطب الله نبياً من أنبيائه من غير واسطة، ولكن من وراء حجاب. والمقصود بالحجاب الأمر المعنوي الذي يكف الله به

---

(1) الجرجاني: علي بن محمد بن علي، التعريفات. ص 59. تحقيق إبراهيم الإبياري. دار الريان التراث.

(2) الزرقاني: الشيخ عبد العظيم، مناهل العرفان 1/ 56. مطبعة عيسى البابي الحلبي.

(3) الآية 51 من سورة الشورى.

(4) فتح الباري. كتاب الوحي 1/ 239، مرجع سابق.

عباده عن رؤية ما لا يريدهم أن يطلعوا عليه. فالخلق هم المحجوبون لا الخالق. يقول القاضي «عياض»: فهو في حق المخلوق لا في حق الخالق، فهم المحجوبون، والباري ـ جل اسمه ـ منزه عما يحجبه إذ الحجب إنما تحيط بمقدار محسوس[1]...

ثالثاً: الوحي بواسطة المَلَك، وهي مهمة يقوم بها ملك الوحي «جبريل» ـ عليه السلام ـ حيث يرسله الله إلى نبي من أنبيائه، ليبلغه مراد الله منه. فيكون الملك واسطة بين الرسول وبين ربه، والرسول واسطة بين الملك وبين قومه.

وما يؤديه الملك إلى الرسول ليؤديه إلى قومه ضربان: قرآن، ووحي: فأما القرآن: فيلزم الملك أن يؤديه إلى الرسول بلفظه. وليس للرسول أن يعدل عن هذا اللفظ، لأن القرآن ـ كما هو معلوم ـ لفظه ومعناه من الله تعالى. وأما الوحي غير القرآني فيتنوع إلى أنواع: فيكون بعضه باللفظ الصريح، وبعضه بالرمز الخفي، وبعضه بالفعل الظاهر، وبعضه بالإشارة الباطنة، وبعضه بالإمارات التي تضطر المشاهد إلى العلم بما أريد بها، وليس لها نعت موصوف، ولا حد مقدر[2]...

وقد تحدث «الحليمي» عن موضوع الوحي باستفاضة، متخذاً من حديث الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ «الرؤيا جزء من ستة وأربعين جزءاً من النبوة» منطلقاً لتحديد معالم هذا الموضوع.

وقد ذكر وجوهاً من الخصائص العلمية للأنبياء ـ عليهم الصلاة والسلام ـ وتكلف في بعضها حتى أنهاها إلى العدد المذكور في الحديث لتكون الرؤيا واحداً منها[3].

---

(1) الشفاء، أبو الفضل عياض بن موسى 1/ 242، تحقيق: علي محمد البيجاوي. مطبعة عيسى البابي الحلبي ـ القاهرة.

(2) الماوردي. أبو الحسن علي بن محمد، أعلام النبوة. ص 25 ـ 26. مطبعة نهضة مصر. الناشر: مكتبة دار الفرجاني. مصر الجديدة. القاهرة.

(3) انظر: المنهاج في شعب الإيمان 1/ 239 ـ 255.

ويرى «الحليمي» أن للأنبياء خاصتين تميزهم عن غيرهم من البشر العاديين: الأولى: الآيات التي يؤيَّدون بها. والثانية: العلم الذي منحهم الله إياه. فيكون الخصوص واقفاً لهم من الوجهين إلا أن ما وقع في حيز التعليم فهو النبوءة. وما وقع في حيز التأييد فهو حجة النبوءة.

والخصوص من قبل التعليم: قد يكون في الجهة التي يتلقون منها العلم. وقد يكون في المعلوم الذي يلقى إليهم.

ثم أخذ «الحليمي» يذكر أمثلة لأنواع، ودرجات العلم التي خص بها الأنبياء، وهي وجوه، منها:

1 ـ درجة تكليم الله ـ عز وجل من كلم منهم، وهي أعلى درجات العلم. قال الله ـ عز وجل ـ: ﴿ وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا ﴾[1]. وقال: ﴿ فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِىَ مِن شَـٰطِئِ ٱلْوَادِ ٱلْأَيْمَنِ فِى ٱلْبُقْعَةِ ٱلْمُبَـٰرَكَةِ مِنَ ٱلشَّجَرَةِ أَن يَـٰمُوسَىٰٓ إِنِّىٓ أَنَا ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴾[2]..

2 ـ إلهام الله ـ تعالى ـ واحداً منهم بلا كلام يسمعه علم شيء، فيجده في نفسه من غير موصل تقدم إليه بحس واستدلال.

3 ـ أن ينفث الملك في روعه: كما روى عن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ أنه قال: «إن روح القدس نفث في روعي: إن نفساً لن تموت حتى تستكمل رزقها وأجلها فاتقوا الله وأجملوا في الطلب[3].

وهذا هو الوحي الذي يخص القلب دون السمع. وفي كتاب الله ـ عز وجل ـ: ﴿ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴾[4].

---

(1) الآية 164 من سورة النساء.

(2) الآية 30 من سورة القصص.

(3) السيوطي، الفتح الكبير 1/ 293. مطبعة مصطفى البابي الحلبي. وصححه، الألباني في الجامع الصغير 2/ 209، وانظر أيضاً: المواهب اللدنية، للقسطلاني 1/ 229. علماً بأن محقق كتاب المنهاج في شعب الإيمان، للحليمي ضعف الحديث.

(4) الآيتان 193، 194 من سورة الشعراء.

ويبدو لي أن استدلال «الحليمي» بهذه الآية، استدلال في غير موضعه، لأن هذه الآية تتحدث عن نزول القرآن، وهو لا يخص القلب وحده بل يقرع السمع أيضاً، لأنه ينزل بألفاظ عربية، وإنما خص القلب بالذكر، لأنه محل الوعي والتثبيت ـ كما قال: أبو حيان[1].

والدليل على ذلك أن «الحليمي» قال بعد ذلك[2]: وهذا النوع من العلم ليس خاصاً بالأنبياء، بل قد يشاركهم فيه المؤمنون أيضاً: بأن ينفث الملك في روع المؤمن بالإطماع في الظفر بالعدو، والرغبة في الثواب والأجر. فيحمله ما يجده في قلبه من هذه المعاني على الثبات، ويزول عنه ما يوسوس به الشيطان من التخويف، والإقناط من النصر والحمل على اغتنام السلامة بالرجوع إلى الأهل، قال تعالى: ﴿إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ أَنِّى مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾[3].

وإن قال «الحليمي» بعد ذلك: إنه لا ينفث في روع من دون النبي علم الأحكام، ولا علم الكوائن والحوادث المستقبلية، والوعد والوعيد. لأنه من قبيل الوحي من غير موصل، وإن كان بواسطة الملك، والآية تتحدث عن الاتصال المباشر بين الملك والرسول عليه الصلاة والسلام. كما سيذكره «الحليمي» بعد ذلك.

4 ـ أن يوحي إليه على لسان ملك فيراه، ويكلمه كما يكلم واحد من البشر صاحبه، فيقع له العلم بما يسمعه.

وهذا من قبيل النوع الثالث من أنواع الوحي، وهو مجيء الملك في صورة بشرية، وبقيت حالة أخرى يأتي فيها الملك في صورته الملكية كما جاء في الأحاديث التي تصف نزول الوحي على الرسول الكريم: منها ما رواه «البخاري» بسنده عن «عائشة» أم المؤمنين ـ رضي الله عنها ـ أن «الحارث بن هشام» رضي الله عنه ـ سأل رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ: فقال يا رسول الله: كيف يأتيك الوحي؟ فقال

---

(1) البحر المحيط في التفسير 8/ 188. مرجع سابق.

(2) المنهاج في شعب الإيمان 1/ 240.

(3) الآية 12 من سورة الأنفال.

الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ: «أحياناً يأتيني مثل صلصلة الجرس، وهو أشد علي، فيفصم عني، وقد وعيت عنه ما قال. وأحياناً يتمثل لي الملك رجلاً فيكلمني، فأعي ما يقول» قالت عائشة: ولقد رأيته ينزل عليه الوحي في اليوم الشديد البرد، فيفصم عنه، وإن جبينه ليتفصد عرقاً[1].

وقد تحدث «الحليمي» عن هذا النوع من الوحي، بحسبانه نوعاً من أنواع العلم خص الله به أنبياءه، ولكنه يعتبره نوعاً من الخطاب غير العادي، وذلك راجع إلى صعوبة فهم الكيفية التي يتم بها الاتصال بين الرسول الأعظم «محمد ابن عبدالله» وهو بشر من طين تغلب عليه المادية، والملك مخلوق من نور تغلب عليه الروحية؟

وقد حل «الحليمي» هذا الإشكال على أن الله ـ سبحانه وتعالى ـ في مثل هذه الأحوال يكرم نبيه بإدنائه من طباع الملائكة، وتمثيله في بعض الوجوه بهم، كما كان الملك في بعض الأحوال يتمثل رجلاً لتعليم النبي ومخاطبته[2]. ونلاحظ هنا تعبير «الحليمي» بلفظ «يكرم» لما في ذلك من اقتراب الرسول من مكانة الملائكة، بتقدير أنهم أفضل من الأنبياء عند «الحليمي» كما سنرى ذلك عند الحديث عن هذا الموضوع إن شاء الله تعالى.

ويظهر لي أن «الحليمي» في استعماله لفظ «الدنو» كان أقرب إلى الصواب من غيره ممن قطع بانسلاخ النبي عن بشريته في تلك الحال ليصير ملكاً حقّاً. فـ «ابن خلدون» مثلاً ـ يقول: وصنف مفطور على الانسلاخ من البشرية جملة بجسمانيتها وروحانيتها إلى الملائكة من الأفق الأعلى ليصير في لمحة من اللمحات ملكاً بالفعل، ويحصل له شهود الملأ الأعلى في أفقهم، وسماع الكلام النفساني، والخطاب الإلهي في تلك اللمحة، وهؤلاء هم الأنبياء ـ صلوات الله

---

(1) البخاري. كتاب بدء الوحي، باب كيف كان بدء الوحي إلى الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ. فتح الباري 1/ 18. مرجع سابق.

(2) المنهاج في شعب الإيمان. 1/ 244.

وسلامه عليهم ـ جعل الله لهم الانسلاخ من البشرية في تلك اللمحة وهي حالة الوحي[1].

إذ الحكم في هذا الموضوع من غير نص شرعي صحيح ضرب من الخيال.

يستمر «الحليمي» في بيان الطرق التي خص الله بها أنبياءه، ليطلعهم على علوم ومعارف من الصعب. بل من المستحيل أن يصل إليها العقل البشري بمفرده، حتى أوصلها إلى اثنين وثلاثين وجهاً[2].

أما ما خصهم به من أنواع المعلومات، فقد ذكر منها أربعة عشر وجهاً منها:

1 ـ تخصيص الأنبياء ـ صلوات الله عليهم ـ بالإخبار عما قد كان، مما ليس علمه موجوداً عند الذين هم بين أظهرهم، من غير أن يعرف لهم التقاء بمن يعلم ذلك، أو قرؤوا كتاباً من الكتب الناطقة بتلك الأخبار، فيكون علمهم بها، وإخبارهم الناس عنها دليلاً على صدقهم، وإحقاقهم في دعوتهم. قال تعالى: ﴿ تِلْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهَآ إِلَيْكَ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَآ أَنتَ وَلَا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَٰذَا ﴾[3].

2 ـ توفيقهم إلى علم المعاشرة، فإن الحاجة إليه كالحاجة إلى علم الحكم والسياسة، فإن من لا خلق له، ولا آداب له اضطر إلى الانقباض والعزلة، ولم يتسع للانبساط والمداخلة، ودخل عليه الخلل في أحواله وأموره كلها.

قال الله ـ عز وجل ـ لـ «موسى» و«هارون»: ﴿ ٱذْهَبَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿٤٣﴾ فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ ﴾[4].

وقال لنبينا ـ صلوات الله عليه ـ: ﴿ خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴾[5]. وقال: ﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ فَإِذَا

---

(1) مقدمة ابن خلدون ص 70 مرجع سابق.

(2) انظر: المنهاج في شعب الإيمان 1/ 250.

(3) الآية: 49 من سورة هود.

(4) الآيتان 43، 44 من سورة طه.

(5) الآية 199 من سورة الأعراف.

عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ ﴾[1] . ثم أثنى تبارك اسمه عليه، فقال: ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾[2] . وسئلت السيدة «عائشة» ـ رضى الله عنها ـ: كيف كان خلق رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ قالتْ: كان خلقه القرآن تعني أنه أخذ نفسه بآداب القرآن، فتأدب بها، وارتاض عليها، فكان كأنه لا يحسن سواها.

وهذا مما لا يكمل له إلا المعصوم. فأما من لا عصمة له، فإنه إذا ضبط شيئاً أغفل بإزائه غيره[3] .

3 ـ إطلاع النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ على أمر المعاد الذي يصير الناس إليه ليعلم عظم نعم الله ـ تعالى ـ عليه وعلى الناس. وإذا كان إنما بعثه ليدعو الناس إلى النعيم الذي أراه بعضه ـ ليلة الإسراء في الجنة، ويستنقذهم من النار التي أراه إياها، فلعل هناك غاية أخرى. وهي أن يزداد جداً وجهداً في الدعوة والشفقة على الأمة.

وهكذا يعدد «الحليمي» أنواع المعلومات التي لا يهبها الله لغير الأنبياء. ثم يقول: فمن قدر على شيء من العلوم التي ذكرناها فبالاستفادة عن الأنبياء ـ صلوات الله وسلامه عليهم ـ أو عمّن استفاد منهم، فأما فضيلة الابتداء فهي لهم. وإذا كان كذلك تبين أن كل علم وكل دين وشريعة، فإنما يكون جميعها عند النبي المبعوث بها، ويتفرق في الذين يأخذون عنه، فلا يوجد عند كل واحد من الناس إلا بعضه[4] .

---

(1) الآية 159 من سورة آل عمران.

(2) الآية 4 من سورة القلم.

(3) انظر: المنهاج في شعب الإيمان 1/ 253، 254.

(4) انظر: المنهاج في شعب الإيمان 1/ 255.

رابعاً: حكمة إرسال الرسل:

يرى المتكلمون أن حاجة البشر إلى النبوة والرسالة السماوية إنما هي لبيان ما لا يستقل بمعرفته العقل البشري. أما ما يستقل بمعرفته كوجود الباري ـ تعالى ـ وعلمه وقدرته.. فإن الوحي يأتي مؤكداً له بالدليل النقلي.

ومن الأمور التي لا يستقل العقل بها:

1 ـ إطلاع الناس على حقيقة الأمور الغيبية التي لا مجال للعقل والحواس فيها.

2 ـ بيان كيفية عبادة الله تعالى.

3 ـ وضع القوانين والتشريعات لضبط سلوك البشر.

4 ـ رسم مبادئ القيم والأخلاق الفاضلة، وغيرها من المصالح[1].

ذلك أن العقل البشري مهما بلغ من الذكاء والرقي، فإنه قاصر عن إدراك مثل هذه الحقائق. قال تعالى: ﴿عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا ۝٢٦ إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ﴾[2]. فالوحي من مكملات الإنسان. فهو بمنزلة العقل من الشخص، فإرسال الرسل قد قطع عذر المكلفين من كل الوجوه كما صرح القرآن بذلك في قوله تعالى: ﴿رُسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ﴾[3]. وقال: ﴿وَلَوْ أَنَّآ أَهْلَكْنَٰهُم بِعَذَابٍ مِّن قَبْلِهِۦ لَقَالُوا۟ رَبَّنَا لَوْلَآ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ ءَايَٰتِكَ مِن قَبْلِ أَن نَّذِلَّ وَنَخْزَىٰ﴾[4].

---

(1) انظر: أعلام النبوة، للماوردي ص 18. والأصول الخمسة للقاضي عبد الجبار ص 564. والفصل في الملل والنحل والأهواء لابن حزم 1/ 57. والمقاصد للتفتازاني 2/ 128.

(2) الآيتان 26، 27 من سورة الجن.

(3) الآية 165 من سورة النساء.

(4) الآية 134 من سورة طه.

ويوضح «الحليمي» هذا الموضوع بذكر ثلاثة وجوه[1]:

الأول: أن الحجة التي قطعت على العباد: هي أن يقولوا: إن الله ـ جل ثناؤه ـ إن كان خلقنا لنعبده، فقد كان ينبغي أن يبين لنا العبادة التي يريدها منا، ويرضاها لنا. ما هي؟ وكيف هي؟ فإنه وإن كان في عقولنا وجوب الاستجداء له، ولزوم الشكر له على نعمه التي أنعمها علينا. فلم يكن فيها أن التذلل والعبودية منا ـ بماذا ينغبي أن تكون؟ وعلى أي وجه ينبغي أن تظهر؟ فقطعت حجتهم، بأن أمروا ونهوا، وشرعت لهم الشرائع، ونهجت لهم المناهج، فعرفوا ما يراد منهم، وزالت الشبهة عنهم.

الثاني: أن الحجة التي قطعت: هي أن لا يقولوا: إنا ركِّبْنا تَرْكيبَ سهو وغفلة، وسُلِّطَ علينا الهوى، ووضعت فينا الشهوات، فلو أمددنا بمن إذ سهونا نبهنا، وإذا مال بنا الهوى إلى وجه قومنا. لما كان منا إلا الطاعة. ولكن لما خُلِّينا ونفوسَنا، وَوُكِلْنا إليها.. غلبت الأهواء علينا، ولم نملك قهرها فكانت المعاصي منا لذلك.

الثالث: أن الحجة التي قطعت: هي أن لا يقولوا: قد كان في عقولنا حسن الإيمان والصدق والعدل، وشكر المنعم، وقبح الكفر والكذب والظلم، ولكن لم يكن فيها أن من ترك الحسن إلى القبيح عذب بالنار خالداً مخلداً فيها، وأن من ترك القبيح إلى الحسن. أثيب بالجنة خالداً مخلداً فيها، لأنه إذا كان لا يدرك بالعقل أن لله ـ جل جلاله ـ خلقاً هو الجنة، وآخر هو النار الغائبة، فكيف يدرك أن أحدهما معد للعصاة. والآخر لأهل الطاعات؟

ولو علمنا أنَّا نعذب على المعاصي والذنوب المتناهية، عذاباً غير متناه. أو نثاب بالطاعات المتناهية، ثواباً غير متناه. لما كان منا إلا الطاعة، ولم يكن منا بحال معصية. فقطع الله ـ تبارك وتعالى ـ هذه الحجج كلها ببعثه الرسل.

---

(1) انظر: المنهاج في شعب الإيمان 1/ 255 ـ 256.

وهذه الوجوه الثلاثة التي ذكرها «الحليمي» هي بعينها ذكرها «الرازي» في «المحصل»[1] ولم يختلف معه إلا في بعض الألفاظ.

أما المضمون وترتيب الوجوه، فلا يختلف عما ذكره «الحليمي».

ثم يعقد «الحليمي» فصلاً يبين فيه أن النظر في الكون المحيط بنا، لمعرفة عجائب المخلوقات كما يدل على البارئ ـ تعالى ـ فإنه يدل على الرسل أيضاً.

ثم يوضح هذه الفكرة بأمثلة[2] يبرهن بها على صحة دعواه. أذكر منها:

1 ـ في مجال علم الفلك: فالناظر في هذا المجال يدرك أن الوقوف على معرفة الكواكب وأنواعها وأعدادها، وأن منها كواكب ثابتة، وأخرى سيارة، وأن لكل نجم من النجوم السيارة فلكاً ينفرد به.. إلى غير ذلك مما يقوله أهل العلم بهيئة السماء مما لا تستقل عقول البشر بمعرفته. فدل ذلك على أن الأوائل، لم تصل إلى ذلك بآرائها منفردة، وإنما أدركت الأصول بخبر الأنبياء ـ عليهم السلام ـ ثم قاست بعقولها عليه غيره، واستنبطت به ما سواه.

2 ـ في مجال علوم الأرض: إن الأشياء المخلوقة في الأرض تختلف اختلافاً كلياً: فمنها ما هو غذاء، ومنها ما هو دواء، ومنها ما هو سم قاتل، والتجربة لا تفي بمعرفة هذه الأشياء ابتداءً لما فيه من الخطورة على الحياة.

كما أن معرفة خواص الأشياء، وتركيب العقاقير، ومعرفة النافع منها والضار كل ذلك لا يمكن العلم به أولاً إلا من جهتهم عليهم السلام.

3 ـ في مجال اللغة: إن وجود الكلام للناس يدل على الرسل. ذلك أن الموجود والمعروف بيننا أن من لم يسمع الكلام أصلاً لم يتكلم، وأن اللغة لابد فيها من

---

(1) انظر: محصل أفكار المتقدمين من العلماء والحكماء والمتكلمين. لفخر الدين محمد بن عمر الخطيب الرازي. ص 214. وبذيله: كتاب تخليص المحصل، للعلامة نصير الدين الطوسي. راجعه وقدم له: طه عبد الرؤوف سعد. الناشر: مكتب الكليات الأزهرية. القاهرة.

(2) انظر المنهاج في شعب الإيمان 1/ 256 ـ 258.

السماع فإن من ولد أصم لا ينطق أبداً، وإنما ينطق من يولد سميعاً، فيسمع كلام بني جنسه، وينشأ عليه.

4 ـ يدلل «الحليمي» على أن من مقاصد النبوة الأساسية: تعليم الناس الحِرَفَ والصناعاتِ، وفنون الزراعة، وعلم النجوم، وإرشادهم إلى الأدوية النافعة. . .

وهذا الاتجاه الذي ارتضاه «الحليمي» تبناه معظم المتكلمين بعده[1]، وهو اتجاه يوائم بين العقل والنقل حيث إنه لم يلغ دور العقل في القيام بمهمته في مثل هذه القضايا لأن هذه الأشياء داخلة في صميم اختصاص العقل البشري، كما قال النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ: «أنتم أعلم بأمر دنياكم»[2] وإنما بين أن أصل هذه الأشياء لابد وأن يكون عن تعليم ووحي، ثم يأتي دور العقل في الفهم والاستنباط من تلك القوانين الكلية للوصول إلى معرفة الأمور الجزئية التي تتصل بمعيشة الإنسان وحياته اليومية.

---

(1) انظر مثلاً: المحصل، للرازي ص 214 ـ 216. مرجع سابق.

(2) صحيح مسلم، باب: وجوب امتثال ما قاله شرعاً، دون ما ذكره ـ صلى الله عليه وسلم ـ من معايش الدنيا، على سبيل الرأي. حديث رقم 2363. جـ 4/ 1836.

خامساً: نبوة محمد - صلى الله عليه وسلم -:

لقد نصت العقيدة الدينية على مجيء عدد كبير من الأنبياء، ولكنا سوف نقصر الحديث على إثبات نبوة «محمد بن عبد الله» عليه الصلاة والسلام، فإن نبوة من قبله من الأنبياء تثبت تلقائياً لو ثبتت نبوته، لكونه آخر الأنبياء، ولأنه يصدقهم ولا ينكرهم، ولأن نجاة البشرية، أو هلاكها في معركة الحياة رهن بإيمانها بهذا النبي أو تكذيبها إياه[1].

إن الدارس لتاريخ الأمم عامة والعرب خاصة - في زمن البعثة المحمدية - يرى بوضوح كيف كانت حاجة سكان الأرض ماسة إلى مدد السماء، بعد أن وقف العقل البشري عاجزاً عن إنقاذ نفسه من الوقوع في غياهب الجهل والضلال، واستعباد الإنسان لأخيه الإنسان.

ما أكبر الفرق بين من يعيش على هدى من العقل الإنساني الذي كثيراً ما يضل، وبين من يسير في العقيدة والتشريع والأخلاق والسلوك... على الهدي الإلهيِّ الذي جاء به الأنبياء، والذي لا يأتيه الباطل من أي جانب من جوانبه! ولا عجب فإن الوحي والرسالات الإلهية رحمة عامة لجميع الناس في كل ناحية من نواحي الحياة[2].

بعث «محمد بن عبد الله» على فترة من الرسل. درست فيها الشرائع والأحكام، وأصبح الدعاة إلى الملة الحنيفية مغمورين بل معدومين، فأضحى الكفر يسيطر على أقطار الأرض بأسرها، والباطل شريعة المجتمع، فأكثر قبائل العربِ اتخذت الأصنام آلهة، ووأد البنات شريعة ملزمة لهم، والسلب والنهب تجارة رائجة

---

(1) الإسلام يتحدى، وحيد الدين خان. ص 156. ترجمة: ظفر الإسلام خان، مراجعة وتقديم دكتور عبد الصبور شاهين. الطبعة السابعة. المختار الإسلامي للطباعة والنشر. القاهرة.

(2) الإسلام وحاجة الإنسانية إليه. الدكتور محمد يوسف موسى. ص 105. مرجع سابق.

عندهم . . . وجميع ممالك الفرس اشتغلوا بعبادة النار، ونكاح البنات والأمهات. استعبد أكابرهم الأصاغر. يصرفونهم تصريف العبيد والخدم.

والنصارى متحيرون في دينهم. مختلفون في مقالاتهم: فريق منهم يجعل لله صاحبةً وولداً، وطائفة تتخذ «المسيح» وأمه إلهين من دون الله. إلى غير ذلك من المقالات الباطلة، والجهالات المتفشية بين العالمين[1].

أفلم يكن من رحمة الله بأولئك الأقوام أن يؤدبهم برجل منهم. يوحي إليه رسالته، ويمنحه عنايته، ويمده من القوة بما يتمكن معه من كشف تلك الغمم التي أظلت رؤوس جميع الأمم؟ بلى كان ذلك وله الأمر من قبل ومن بعد[2].

جاء «محمد بن عبدالله» ـ صلى الله عليه وسلم ـ يحمل معه آية صدقه، ومعجزة دعوته ولكنها تختلف عن معجزات الأنبياء السابقين، فهي معجزة عقلية حسية باقية ببقاء الدهر ألا وهي القرآن الكريم. أظهره الله على يده شاهداً له بصدقه في دعوته، وقد تحدى به البلغاء في عصر امتاز بكثرة من نبغوا في هذا المجال من فرسان الخطابة والمقال.

تحدى العرب أن يأتوا بسورة من مثله، والبلاد العربية متسعة الأرجاء، وقد عمت دعوته جميع أرجائها على لسان الوافدين إلى «مكة» من سكانها، ولم يتعرف النبي برجالها، ولم يسبق أن طاف بها. فهذا الحكم ـ بأنهم لن يأتوا بسورة من مثله ـ بَعُدَ أن يصدر من عاقل، إذ من عنده ملكة من الإدراك لا يظن أن الأرض لا تخلو من صاحب قوة وبلاغة، لكن المتكلم هو الله، وقد علم بقصورهم عما تحداهم به، وعلم أن البشر تقصر قواهم عن مكانة بلاغته. فلما عجزوا أعرضوا عن المعارضة إلى المقارعة بالسيوف. فدل هذا على أن القرآن اختصاص من الله لمن جاء على لسانه ليكون دليلاً على صدقه في دعواه[3].

---

(1) تبصرة الأدلة في أصول الدين. لأبي المعين النسفي 1/ 506 ـ 507. بتصرف. وانظر أيضاً: حياة محمد، لمحمد حسين هيكل ص 71 وما بعدها. الطبعة العشرون. دار المعارف.

(2) رسالة التوحيد، للشيخ محمد عبده. ص 131. مرجع سابق.

(3) تقريب العقائد النسفية ص 218. مرجع سابق.

وإذا ثبت أن القرآن، معجز بجمعه الجزالة والنظم البديع، والأسلوب الذي تفرد به، وهو أسلوب مخالف لكل أساليب كلام العرب جميعاً، فإنه معجز بإخباره بكثير من الغيب، وأنباء الأمم السابقة. يضاف إلى ذلك موافقته لطبيعة النبوة والرسالة التي غايتها سعادة الإنسانية، والقرآن الكريم - من هذه الناحية - هو المعجزة الكبرى للرسول - صلى الله عليه وسلم - فإن الشرائع التي تضمّنها من العلم والعمل ليس مما يمكن أن يكتسب بتعلم، لأنها في كثير من جوانبها خارجة عن سلطان العقل البشري.

إن طبيعة النبوة هي سن التشريعات الملائمة لواقع النفس البشرية، والمفضية إلى السعادة في الدنيا والآخرة، وعمل النبي هو الإتيان بهذه الشريعة، والمقدرة على إقناع الناس بها، وحسن تطبيقها على نفسه وعلى الآخرين، ومما لا شك فيه أن الرسول - عليه الصلاة والسلام - قد أتى بالشريعة الفضلى، وأن دعوته قد لاقت من النجاح والانتشار ما لم تحظ به غيرها من الدعوات، وأن سلوكه صلى الله عليه وسلم كان مضرب الأمثال. لقد تحققت فيه صفات الأنبياء على أكمل وجه، فهو إذن نبي مرسل[1].

ولم ينكر نبوته - من المعترفين بالنبوة - إلا اليهود، فإنهم يزعمون أنه لا نبي بعد «موسى» عليه السلام - فأنكروا نبوة «عيسى» و«محمد» عليهما السلام - ومستندهم في ذلك العقل والسماع كما يدعون:

أما العقل: فلأن نهي الله - تعالى - عما أمر به أولاً محال، لأنه يدل على خفاء المصلحة عليه في الابتداء، وظهورها له في الانتهاء، والله منزه عن ذلك، وإذا ثبت ذلك لزم امتناع النسخ فلا شريعة بعد «موسى».

وهذا القول باطل، لأن العقل لا يمنع من الأمر بالشيء في زمان، والنهي عنه في وقت آخر بحسب المصلحة. فإن ورود النبي - صلى الله عليه وسلم - ليس بناسخ لشرع من قبله بمجرد بعثته، ولا في معظم أحكامه، ولكن في بعض الأحكام كتغير

---

(1) فخر الدين الرازي وآراؤه الكلامية والفلسفية ص 566 - 567. مرجع سابق.

قبلة، وتحليل محرم، وغير ذلك، وهذه المصالح تختلف بالأعصار والأحوال، فليس فيه ما يدل على التغير، ولا على الاستبانة بعد الجهل، ولا على التناقض[1].

ثم إن «موسى» ـ عليه السلام ـ قد نسخ شرع من تقدمه، لأن «آدم» زوج بنيه بناته، وجوز «يعقوب» الجمع بين الأختين، ونكح «إبراهيم» بنت أخيه. وكل هذا عند «موسى» منسوخ، فجاز أن ينسخ شرعه بشرع غيره[2].

أما الشرع: فإنهم يقولون: إن «موسى» أخبر أن شرعه لا يرتفع إلى يوم القيامة، وأنه خاتم الأنبياء. وهذا غير مسلم لأسباب:

1 ـ أن «موسى» ـ عليه السلام ـ لم يبين أمر المعاد والقيامة في التوراة، وإنما أخبر بها الأنبياء الذين جاؤوا بعده، وهو أمر جوهري لا غنى للبشرية عنه[3].

2 ـ لو صح ما قالوه عن «موسى» لما ظهرت المعجزات على يد «عيسى» فإن ذلك تصديق له بالضرورة، فكيف يصدق الله بالمعجزة من يكذب «موسى» وهو أيضاً مصدق له؟! ثم نقول لهم: أفتنكرون معجزة «عيسى» وجوداً أو تنكرون إحياء الموتى دليلاً على صدق المتحدي؟ فإن أنكروا شيئاً منه لزمهم في شرع موسى لزوماً لا يجدون عنه محيصاً، وإذا اعترفوا به لزمهم تكذيب من نقل إليهم عن «موسى» ـ عليه السلام ـ قوله: إني خاتم النبيين[4].

3 ـ إن مثل هذه الأقوال لا تثبت إلا بالتواتر، ونحن نعلم أن اليهود قد تعرضوا أيام «بختنصر» إلى قتل شديد كاد أن يقضي عليهم جميعاً، ومن بقي منهم لا يكفي في إفادة التواتر بدليل أن التوراة صارت عندهم ثلاث نسخ مختلفة: إحداها: التي في أيدي اليهود القرابين والرومانيين. والثانية: التي في أيدي السامرة. والثالثة: المعروفة «بتوراة السبعين» التي اتفق عليها سبعون حبراً من أحبارهم،

---

(1) الاقتصاد في الاعتقاد ص 99 ـ 100. مرجع سابق.

(2) أعلام النبوة، للماوردي. ص 41 ـ 42. مرجع سابق.

(3) المحصل للرازي ص 216. هامش. مرجع سابق.

(4) الاقتصاد ص 100. وانظر أيضاً: شرح المقاصد، للتفتازاني 5/ 44.

وهي في أيدي النصارى. والاختلاف بين هذه النسخ في التواريخ والشرعيات مشهور.

وإذا لم يبق لهم نقل التوراة - التي هي أساس دينهم - بالتواتر، فكيف يعتمد على تواتر نقلهم عن «موسى» بأن شرعه يبقى إلى يوم القيامة؟![1].

4 - إن هذه الشبهة - كما يقول الغزالي - إنما لقنوها بعد بعثة نبينا «محمد» - صلى الله عليه وسلم - وبعد وفاته، ولو كانت صحيحة لاحتج بها اليهود، وقد حملوا بالسيف على الإسلام، وكان الرسول مصدقاً «بموسى» وحاكماً بالتوراة على اليهود في حكم الرجم وغيره... ومعلوم قطعاً أن اليهود لم يحتجوا بذلك، وإلا لكان مفحماً لا جواب عنه، ومعلوم أنهم لم يتركوه مع القدرة عليه، ولقد كانوا يحرصون على الطعن في شرعه بكل ممكن حماية لأموالهم ودمائهم ونسائهم[2].

والحديث على إثبات نبوة رسول الإسلام - صلى الله عليه وسلم - يحتاج إلى بحث متعمق ودراسة طويلة - وهذا قد يبعدنا عن موضوع البحث - ولكن لابد من الإشارة إلى موضوعين أساسيين في هذا الجانب: عموم رسالته - عليهم الصلاة والسلام - وأنه خاتم النبيين.

1. عموم رسالته - صلى الله عليه وسلم -:

لا خلاف بين المسلمين في وجوب الاعتقاد بعموم رسالة نبينا «محمد بن عبدالله» - صلى الله عليه وسلم -، لأن من أقر بنبوته، وسلم بصدق رسالته لابد له من التسليم عقلاً أن ما جاء به القرآن، والسنة الصحيحة حق وصدق، وقد وردت نصوص صريحة بأن رسالته عامة وأنه مبعوث إلى الثقلين الإنس والجن، لا إلى العرب خاصة كما زعم اليهود والنصارى، زعماً منهم أن الاحتياج إلى النبي إنما كان للعرب خاصة دون أهل الكتابين. ورد هذا باحتياج الكل إلى من يجدد أمر الشريعة.

---

(1) المحصل للرازي. ص 216 - 217 هامش. وشرح المقاصد، للتفتازاني 5/ 45،

(2) الاقتصاد، للغزالي ص 100. مرجع سابق.

بل احتياج اليهود والنصارى أكثر لاختلال دينهم بالتحريفات وأنواع الضلالات مع ادعائهم أنه من عند الله[1].

والدليل على عموم بعثته ـ صلى الله عليه وسلم ـ ما يلي:

أولاً: أنه ادعى ذلك بحيث لا يحتمل التأويل، وأظهر المعجزة على وفقه، وأن كتابه المعجز قد شهد بذلك قطعاً: كقوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةٗ لِّلنَّاسِ بَشِيرٗا وَنَذِيرٗا﴾[2]. وقوله تعالى: ﴿قُلۡ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيۡكُمۡ جَمِيعًا﴾[3]. وقوله: ﴿قُلۡ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ ٱسۡتَمَعَ نَفَرٞ مِّنَ ٱلۡجِنِّ فَقَالُوٓاْ إِنَّا سَمِعۡنَا قُرۡءَانًا عَجَبٗا ۝١ يَهۡدِيٓ إِلَى ٱلرُّشۡدِ فَـَٔامَنَّا بِهِۦۖ وَلَن نُّشۡرِكَ بِرَبِّنَآ أَحَدٗا﴾[4]. إلى غير ذلك من الآيات التي تنص على أن رسالة «محمد» ـ صلى الله عليه وسلم ـ بما اشتملت عليه من أحكام وتشريعات موجهة إلى الناس جميعاً، ولم نر آية في القرآن خطاباً لقوم دون قوم، بل يخاطب الناس بأساليب عامة شاملة. يقول «ابن تيمية»: ليس في القرآن الكريم آية واحدة تدل على اختصاص رسالته بطائفة معينة (بالعرب) وإنما فيه إثبات رسالته إليهم، كما أن فيه إثبات رسالته إلى قريش، وإلى أهل الكتاب وغيرهم[5].

وقد أكد النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ ما أشار إليه القرآن في أحاديث صحيحة منها: ما رواه «البخاري» في صحيحه عن «جابر بن عبدالله» ـ رضي الله عنه ـ أن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال: أعطيت خمساً لم يعطهن أحد قبلي: نصرت بالرعب مسيرة شهر، وجعلت لي الأرض مسجداً وطهوراً فأيما رجل من أمتي أدركته الصلاة فليصل، وأحلت لي الغنائم ولم تحل لأحد قبلي، وأعطيت الشفاعة، وكان النبي يبعث إلى قومه خاصة وبعثت إلى الناس عامة[6].

---

(1) شرح المقاصد، للتفتازاني. 5/ 46. مرجع سابق.

(2) الآية 28 من سورة سبأ.

(3) الآية 158 من سورة الأعراف.

(4) الآيتان 1، 2 من سورة الجن.

(5) الجواب صحيح لمن بدل دين المسيح. 1/ 131. مطبعة المدني. القاهرة.

(6) كتاب التيمم حديث رقم 224. مختصر صحيح البخاري، للزبيدي 1/ 62. ضبطه وصححه: محمد سالم هاشم. الطبعة الأولى 1415هـ ـ 1994م. دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان.

وقد ظهرت آثار هذه الدعوة العامة منذ فجر دعوته صلى الله عليه وسلم، فقد دخل في الإسلام العبيد والأحرار من العرب والعجم، ولهذا فإنه لا مجال للشك في أن الإسلام ليس دين أمة واحدة، ولا هو دين طبقة واحدة ليس للسادة والسلاطين دون الضعفاء المسخرين، ولا هو للضعفاء المسخرين دون السادة الأقوياء، ولكنه رسالة تشمل الإنس والجن جميعاً، وأن «محمداً» عليه الصلاة والسلام - مبعوث لجميع أفرادهم على اختلاف طبقاتهم، وأن من لم يؤمن به فهو كافر مستحق لعذاب الله، مستحق للجهاد[1].

ثانياً: جاء الإسلام في وقت وصلت فيه البشرية إلى كمال نموها حيث تقلصت المسافات وأزيلت الحواجز وبدأ اتصال الشعوب بعضها ببعض، فأصبحت محتاجة إلى قانون ينظم العلاقة بين الأفراد والجماعات، فكان الإسلام وافياً بحاجات الإنسانية في أمور معاشها ومعادها، وهذا ليس غريباً على دين أخذ على عاتقه مهمة قيادة سفينة البشرية، والوصول بها إلى شاطئ الأمان، فهو دين موجه إلى الجميع لا يتقيد بحدود جغرافية أو طبيعية، ولا يحده زمان ولا مكان.

ثالثاً: احتواء الإسلام لما في الرسالات السابقة عليه من مبادئ وتشريعات تحتاج إليها البشرية. فقد حوت رسالة الإسلام ما في الرسالات التي سبقتها من مبادئ وحقائق لا تتبدل على مر العصور والأزمان. قال تعالى: ﴿ شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ ۖ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ ﴾[2]. فهي مماثلة للرسالات السابقة في الدعوة إلى التوحيد والعدل والمعاد.. إلى غير ذلك من القيم النبيلة والحقائق الثابتة، وزادت عليها المبادئ التي تحتاج إليها البشرية في مستقبل حياتها. قال تعالى: ﴿ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ

---

(1) التفسير الكبير، فخر الدين الرازي 15/ 28 وما بعدها. بتصرف. الطبعة الثالثة (1405هـ 1985م) دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع. بيروت - لبنان.

(2) الآية 13 من سورة الشورى.

ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ﴾[1]. فالقرآن الكريم هو الكتاب الوحيد الذي يتمثل الحق في صدوره من جهة الألوهية، ويتمثل الحق في محتوياته، وفي كل ما يعرض له من أصول العقيدة والشريعة، وفي كل ما يقصه من خبر، وما يحمله من توجيه. لا يحصل فيه تبديل ولا تحريف، فهو الصورة الكاملة لدين الله، وهو المرجع الأخير في هذا الشأن، والمرجع الأخير في منهج الحياة، وشرائع الناس التي تستمر إلى يوم الدين[2].

ويقول «سيد قطب»: ما من صاحب دين غير الإسلام - ينظر في الإسلام نظرة مجردة من الهوى والتعصب، حتى يقر باستقامة هذا الدين، وقوته وقدرته على القيادة للبشرية قيادة رشيدة، وتلبية حاجاتها النامية المتطورة في يسر واستقامة. فوعد الله «وكفى بالله شهيداً» قد تحقق في صورة السياسة الظاهرة قبل مضي قرن من الزمان بعد البعثة المحمدية، ووعد الله ما يزال متحققاً في الصورة الموضوعية الثابتة. وما يزال هذا الدين ظاهراً على الأديان كلها في حقيقته، بل إنه هو الدين الوحيد الباقي القادر على العمل والقيادة في جميع الأحوال[3].

ويقول «ابن رشد»: ولعموم التعليم الذي في الكتاب العزيز. وعموم الشرائع التي فيه أعني كونها مسعدة للجميع، كانت هذه الشريعة عامة لجميع الناس.. فإنه يشبه أن يكون الأمر في الشرائع، كالأمر في الأغذية. وذلك أنه كما أن من الأغذية أغذية تلائم بعض الناس دون بعض، ومنها أغذية تلائم جميع الناس أو الأكثر... ولهذا المعنى كانت الشرائع التي قبل شريعتنا هذه، إنما خص بها قوم دون قوم، وكانت شريعتنا هذه عامة لجميع الناس[4].

---

(1) الآية 48 من سورة المائدة.

(2) تفسير الكشاف، للزمخشري 1/ 618. مرجع سابق.

(3) في ظلال القرآن 2/ 902. دار الشروق، الطبعة الحادية عشرة، 1402هـ - 1982م.

(4) مناهج الأدلة في عقائد الملة. ص 221 - 222. مرجع سابق.

2. ختم النبوة والرسالة:

إن الدارس للإسلام دراسة موضوعية خالية من المؤثرات الداخلية والخارجية بعيدة عن الأحكام المسبقة، يرى بوضوح وفاءه بحاجات الإنسان في أي مكان وزمان، فقد وضع الإسلام الأسس السليمة التي يقوم عليه الفرد الكامل، والمجتمع الصالح، والمدنية الرشيدة، ثم ترك للعقل البشري حرية الرأي - عن طريق الاجتهاد والقياس - في القضايا التي تحدث في المجتمع لتصبح رافداً يمد المجتمع المسلم بما يساعده على الرقي والتقدم في مجالات الحياة المختلفة، بما لا يعارض نصاً من تلك النصوص الثابتة على مر الأزمان، واختلاف المكان. فكان نتيجة لهذا الكمال أن تصبح رسالة الإسلام خاتمة الرسالات السماوية كلها، وأن يكون صاحبها خاتم أنبياء الله ورسله.

ومن أجل ذلك حفظ الله هذا الدين من أن تمتد إليه يد التبديل والتحريف على غرار ما حدث للكتب السماوية السابقة من تحريف وضياع وتبديل، لأن الله لم يتكفل بحفظها وبقائها، وإنما أوكل ذلك إلى أصحابها، على تقدير أنها محدودة الزمان والمكان، فقد جاءت لمرحلة من الزمن ولبيئة خاصة. ومن ثم كانت تلك الرسالات محكومة بظروفها، مكتفية بهذه الظروف، وأن شريعتها تناسب حالة الجماعة، وحالة البيئة والزمن اللتين وجدت فيهما، حتى شاءت إرادة الله، واقتضت حكمته أن يختم رسالاته إلى البشر، فأرسل إلى الناس كافة رسولاً يحمل معه دستوراً شاملاً لجميع أطراف الحياة ونشاطها دنيوياً وأخروياً، وجاء في آخر هذه الرسالة: ﴿ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَـٰمَ دِينًا ﴾[1].

وتكفل الله بحفظ هذا الدستور، وسلامته من المسخ والعبث، وارتفاعه من صدور الناس «وتيسيره على جميع الألسنة: حتى حفظه الأعجمي الأبكم، ودار به

---

(1) الآية 3 من سورة المائدة.

لسان القبطي الألكن، ولا يحفظ غيره من الكتب كحفظه، ولا تجري بها ألسنة البكم جريها به. وما ذاك إلا بخصائص إلهية فضله بها على سائر كتبه»[1].

وتظهر هذه الكفالة ببقاء شريعته غضة طرية بالرغم من مرور أكثر من ألف وأربعمائة من السنين، وما زالت صالحة للتطبيق، وافية بالغرض، فليس فيها نقص أو فراغ يتطلبان التكميل والإتمام.

كما تكفل بحفظ سيرة صاحب الرسالة بحسبانه الأسوة الحسنة لأتباعه جميعاً، وقد تجلت تلك العناية الإلهية بكل وضوح في حفظ أخبار حياته الخاصة والعامة بواسطة المؤرخين، وأصحاب السير. ولم تحظ شخصية من الشخصيات سواء من الأنبياء أم من غيرهم من عظماء البشر بمثل ما حظيت به شخصية الرسول الأعظم «محمد بن عبدالله» ـ عليه أفضل الصلاة وأزكى التسليم ـ لأنها هي القدوة الحسنة الدائمة للأجيال البشرية إلى يوم الدين: ﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُواْ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْآخِرَ ﴾[2].

وهذا مما أجمع عليه المسلمون قاطبة، ودلت عليه النصوص القطعية: قال تعالى: ﴿ مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَـٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا ﴾[3].

وروى «البخاري» بسنده عن «أبي هريرة» ـ رضي الله عنه ـ عن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال: كانت بنو إسرائيل تسوسهم الأنبياء. كلما هلك نبي خلفه نبي، وإنه لا نبي بعدي، وسيكون خلفاء، فيكثرون. قالوا: فما تأمرنا. قال: فوابيعته الأول فالأول، أعطوهم حقهم، فإن الله سائلهم عما استرعاهم[4].

---

(1) أعلام النبوة، للماوردي، ص 53. مرجع سابق.

(2) الآية 21 من سورة الأحزاب.

(3) الآية 40 من سورة الأحزاب.

(4) مختصر صحيح البخاري. حديث رقم 1443، 1/ 326.

وعن «جابر بن عبدالله» ـ رضي الله عنهما ـ قال: قال النبـي ـ صلى الله عليه وسلم ـ: مثلـي ومثل الأنبياء كرجل بني داراً فأكملها وأحسنها، إلا موضع لبنة، فجعل الناس يدخلونها ويتعجبون، ويقولون لولا موضع اللبنة[1].

وفي رواية عن «أبي هريرة» ـ رضي الله عنه ـ زيادة: إلا موضع لبنة من زاوية، وقال في آخره: فأنا اللبنة، وأنا خاتم النبيين[2]. إلى غير ذلك من النصوص التي لا تدع مجالاً للشك في أن الرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ هو آخر الرسل، وخاتم الأنبياء، وأن كل من يدعي النبوة، أو نزول الوحي عليه بعده صلى الله عليه وسلم فهو مارق من الدين، وخارج عن عقيدة الإسلام.

يقول «الشيخ محمد عبده»: لم يدع الإسلام أصلاً من أصول الفضائل إلا أتى عليه، ولا أما من أمهات الصالحات إلا أحياها، ولا قاعدة من قواعد النظام إلا قررها، فاستجمع للإنسان عند بلوغ رشده، حرية الفكر، واستقلال العقل في النظر... هل بعد الرشد وصاية؟ وبعد اكتمال العقل ولاية؟ كلا... قد تبين الرشد من الغي، ولم يبق إلا اتباع الهدى، والانتفاع بما ساقته أيدي الرحمة لبلوغ الغاية من السعادتين. لهذا ختمت النبوات بنبوة «محمد» ـ صلى الله عليه وسلم ـ وانتهت الرسالات برسالته، كما صرح بذلك الكتاب، وأيدته السنة الصحيحة، وبرهنت عليه خيبة مدعيها من بعده، واطمئنان العالم بما وصل إليه من العلم إلى أن لا سبيل بعد لقبول دعوة يزعم القائم بها أنه يحدث عن الله بشرع، أو يصدع عن وحيه بأمر[3].

ويرى «الحليمي» أن سر كثرة معجزاته ـ صلى الله عليه وسلم ـ وتنوعها راجع إلى عموم رسالته ـ عليه الصلاة والسلام ـ وأنها خاتمة الرسالات.

---

(1) المرجع السابق حديث رقم 1475، 1/ 332.

(2) المرجع نفسه. حديث رقم 1476، 1/ 33.

(3) رسالة التوحيد. ص 169، 170. مرجع سابق.

يقول «الحليمي» ـ رحمه الله ـ: ثم إن له ـ صلى الله عليه وسلم ـ وراء القرآن من الآيات الباهرة: إجابة الشجرة إياه لما دعاها، وتكلم الذراع المسمومة إياه. وازدياد الطعام لأجله حتى أصاب منه ناس كثير. وخروج الماء من بين أصابعه في المخضب حتى توضأ منه ناس كثير. وحنين الجذع، وظهور صدقه في مغيبات كثيرة أخبر عنها، وغير هذا مما ذكر ودوِّن، وفي الواحد منها كفاية، غير أن الله ـ جل ثناؤه ـ لما جمع له بين أمرين:

أحدهما: بعثه إلى الجن والإنس عامة.

والآخر: ختمه النبوة به، ظاهر له بين الحجج حتى إذا شذت واحدة عن فريق، بلغتهم أخرى، وإن لم تنجع واحدة نجعت الأخرى، وإن درست على الأيام واحدة بقيت أخرى. ولله في كل حال الحجة البالغة، وله الحمد ـ على نظره لخلقه ورحمته إياهم ـ كما يستحقه[1].

---

(1) المنهاج في شعب الإيمان 1/ 276.

نتائج هذا الفصل

1 ـ أن النبوة والرسالة لا غنى للإنسانية عنها، لأن سعادتها في الدارين منوطة بالسير على المنهج النبوي الذي ارتضاه الله ـ تعالى ـ لعباده.

2 ـ عند الكلام على النوع الثاني من أنواع الوحي: وهو الكلام من وراء حجاب. استشهد «الحليمي» بكلام الله «لموسى» كما جاء في القرآن الكريم صراحة، ولم يتعرض لقضية تكليم الله لنبينا «محمد» ـ عليه الصلاة والسلام ـ ليلة الإسراء، وهي قضية دار حولها جدل طويل بين الباحثين، لأنه يعتبر أن مثل هذا الخلاف لا يمثل خطراً، إذ إنه اجتهاد في فهم النص. بخلاف الآراء الأخرى التي يعتنقها «الثانوية» أو «المشبهة» أو «الفلاسفة» فقد تصدى لمناقشتها وبيان وجوه الخلل فيها.

3 ـ وظيفة الرسل ـ عند «الحليمي» ـ لا تقتصر على بيان الأمور الدينية، بل تتعداها إلى المعارف الدنيوية، فأصول جميع العلوم والمعارف الحياتية ـ أيضاً مأخوذة عن الأنبياء ـ صلوات الله عليهم أجمعين ـ، فهم الذين وضعوا اللبنة الأولى التي أقام عليها العقل البشري صرح الحضارة والتقدم.